بائيات الحماسة

(١) بائية شهاب الدين محمود

بدا طبيعيا لحركة الشعر فى عصر الحروب الصليبية أن تحذو حذو الأحداث التاريخية التى تشبهها ، وإذا كان لدينا رصيد من الشعر الحربى يحكى قصة الصراع فى معارك المسلمين مع الروم ، خاصة فيما نجده شديد الظهور لدى الشعراء الكبار ، على نحو ما نظم من روميات أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى فراس ، وغيرهم من الشعراء الذين اقتحموا بشعرهم تاريخ الحروب فسجّلوا ووثّقوا وصوّروا وربما أضافوا ، فمن الطبيعى أن يستمر هذا الرصيد مع شعر الحروب الصليبية عبر المعارك الكثيرة التى وقعت بين المسلمين والفرنجة فى « الرها » ، و« حطين » ، و« بيت المقدس » ، و«دمياط » ، و«عكا » خاصة أن حركة الجهاد قد أخذت عمقا دينيا بدا شديد التميز فى كل هذه الحروب سواء فى الروميات أو الصليبيات التى توقف عند نظمها الشعراء ، وعندها تقاربت الأحداث وتشابهت المواقف وتلاقت الرؤى ، فلم تبعد الصليبيات عن الروميات ، ولم تتباين البيانات الحربية موزّعة بين مدح حربى وحس جماعى قومى ودينى ، ولم تبعد المقومات عن التوقف عند ممدوح وخصم ، ومازالت الأبنية الفنية موزعة بين مقدمات وموضوعات للقصائد .

ولا شك أن لكل واحدة من تلك المعارك الكبرى دورها فى امتداد حركة الجهاد الإسلامى منذ استهدفت استرداد ما سقط من مدن الإسلام فى أيدى الغزاة ، فكان الشعر الحربى وسيلتهم للتغنى بتلك الانتصارات وتسجيل ملامحها التاريخية ، وتسجيل أصدائها فى حركة الجهاد ، والتعبير عن مشاعر المسلمين إزاءها ، كما حدث فى استعادتهم مدينة «الرها» ، ثم ما كان من انتصارهم فى يوم « حطين » ، وكذا استعادة مدينة دمياط ، ثم ما توالى من تتويج الانتصارات فى خواتيم معارك المسلمين والفرنجة حتى عادت بلاد الإسلام إلى أهلها كاملة ، كما دفع شهاب الدين محمود إلى معارضة أبى تمام فى بائيته المشهورة ، وقد سجد لربه شكرا من أصداء هذا النصر المبين ، وكأنما داعبت خياله مشاهد تاريخ انتصار المعتصم على الروم فى يوم «عمورية» ، ولمعت فى ذاكرته مشاهد فرحة المسلمين بذلك الفتح الأكبر الذى صوّره له من قبله أبو تمام فى يوم عمورية ، فراح شهاب الدين محمود يقول على